

الكنيسة وعالم اليوم

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

المستشار اللاهوتي لدى نيطة البطريرك الماروني
والخبير في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني

عاشت الكنيسة في فترات من تاريخها الطويل في انعزال وانزواء عن العالم وقيمته الارضية. فما كانت تُعيره وتُعيرها اهتماماً ، مبشرة بالروحيات دون ان تقيم الارضيات ، خليقة الله. كهُزأ بها وتزدري بالمادة والجد والحب ولا تهتم لتطوير تاريخ الانسانية إذ لم تكن ترى فيه سوى أوقات عابرة فيها تجربة الانسان وارتباطه بالخطيئة. تودّ دوماً أن تحمله إلى إهمال الأرض ؛ إذ ليس له فيها مدينة دائمة ، وأن توجه نظره الى المدينة العتيقة ، تلك اورشليم السماوية. فلا بناء يدوم ولا مدينة تنمو ما لم تنحصر في الروحيات ، وما دونها فهو شكل وصورة نزول كهيبة ربح .

ولم تكن الكنيسة لتقف عند هذا الحد ففاقت مرّات إلى التسلط على العالم والانفصاع منه ، نشاطه الزعامية ، أو بالحري ترفض أن تكون للعالم زعامة زمنية مطلقة ، فقامت اذ ذلك تطلب لنفسها مهمة استعمال السيفين ، السيف الروحي لحكم الروحيات والسيف الزماني لتدريب الزمانيات ، واعتبرت نفسها جزءاً لا يتجزأ من القطاع الزماني ، لاتسمح للانسان بالاستقلال الذاتي في توجيه حياته الزمنية ولا بالاسترسال في التنقيب والاكتشافات التي تتنافى وبعض المبادئ العلمية التي سنّها بعض اللاهوتيين والفلاسفة والتي لا أثّر لها في وحي الكتاب .

وما كانت نتيجة هذا كله سوى أن نخذل الإنسان وضعفت معنوياته وشعر بتشاؤم يربطه إلى الكسل وقد اضطر للإقرار بعدم فعالية أعماله الأرضية وبعدم استقرارها في خدمة يتوق إليها أتباعه . واذ جرّدت الكنيسة العالم من كل وضعية خلاقة ذهبت به من الانزواء إلى الازدراء بالخليقة فألى الاستهتار بالتاريخ في حقل الاقتصاد والاجتماع . فتمخض العالم عن ثورة أصلها احترام الإنسان وفعاليته

الزمنية وغايتها خدمة الإنسان ووسائلها الانعتاق من الكنيسة وما تمثله
ليبنى هنا في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي مدينة ارضية نكون له
موطن العيش الأمين. فيصير التاريخ اذ ذلك تاريخاً كونياً وبشرياً
لا اله يرتبط به ولا شرائع توجهه سوى التقية وما اليها من سنن لتطوير
المادة وجعلها في خدمة الانسان الذي يختبر كل يوم مسؤوليته في
سبيل أخيه الإنسان ولا يرى في الحربة سوى العمل على الاضطلاع
بتلك المسؤولية.

وبينا كانت الكنيسة تَحصرُ اهتمامها بأبنائها وتدافع عنهم لتحسينهم
من مغبة تلك الثورة تحمل اليهم ما أتت عليه من لدن الله شعرت
بأن بينها وبين العالم هوة حقة وبأن رسالتها لا حدود لها وبأن عليها
ان تنهيم كلام الله على ضوء الواقع مع ما فيه من الطموح والآمال
والمآسي.

هي المأساة : الكنيسة والعالم . أما صنوان يناظران ويكونُ السبقُ
للواحد على الآخر . أليس الإنسانُ من تُريده الكنيسة ويريده العالم
ومن في خدمته تضع الكنيسة ما اعطاها ابياد الله من قوى ووسائل روحية
ويضع العالم كل مقدرات الارض والكون ؟ هي المأساة في مكاملة الكنيسة
والعالم . ولقد أنخى المجمع المقدس المسكوني الفاتيكاني الثاني وجرب ان ينهيم
أسسها ويعطي المأساة تلك : الحل الوافي : إذ حلل العالم : وإن ضمت
جرحاً تحز في قلب الانسان لانها تتناساه ، وإن ارادت خدمته : وتغض
النظر عما فيه من روح الله لا تسد جوعه المادة : وإن ساعدته على
الحياة : ولا تروي عطشه الاقتصادية وإن دُعي حقاً للاهتمام بها وللعمل
فيها ولا استعمالها كي يكون للارض : خليفة الله ، وجه الانسان .

١

فما هو عالمنا اليوم ؟ ثلاث تميزه : فهو عالم الطموح والمتناقضات ،
عالم الحرية واليأس وعالم التحدي .
استفاق الإنسان من سباته على حقيقة أشعلت إرادته حماساً ؛
استفاق على حريته وضرورة تحمل أعباء المسؤولية وهو ليس بعد في
عهد الطفولة بل قد تجاوزه فبايع نفسه السيطرة على الكون وعمل فيه
وطمح الى توجيهه وتبديله وتوصل إلى إعطائه وحقاً يدل على تغييرات عميقة
على صعيد الإجماع والثقافة والمدنية ، ما باتت أن أثرت على الإنسان

صانعتها في حياته الدينية وفي احكامه وتفكيره وأعماله فيشعر وهو بمدى
يدته للسيطرة على الكون بأنه لا يملك على قواه وحرية فتحونه هذه
ويلتحق بها ، يشعر وهو يدخل بين طيات كيانه دارساً ومتعسماً بأنه
لا يتوصل إلى أسس أمينة تُنبيه على حقيقته . يشعر وهو يوسع آفاق
اكتشافاته الإجماعية بأنه يتضح في اعطاء الترجيح الصادق . وبيننا تكبر
بين يديه ثروات الأرض وتعمل الإقتصاديات على درء كل طارئ مؤسف
يزداد الجوع وبتراكم البؤس والشقاء ؛ بيننا تتأصل في العنقول ربح الحرية
والاستئلال بخيم على البشرية استعباد إجماعي ووجع نسائي . بيننا تنوق
البشرية تلك إلى الوحدة والتكاتف في خدمة الإنسان . تتطاحن الشعوب
في اختلافات لا تخصص ، سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية . تثبت
من عصرية لا تهاب الحرب وإن دمرت ما حصله التطور بجهد وعناء ؛
بيننا نرضى البشرية تلك بأن تسلّم بعض مقدراتها لمؤسسة دوليّة تسير
على مصيرها ، لا نرى أن في ذلك روحاً كافية لتلافي الأخطار والاستتباب
السلام .

هذا التخرج ناتج عن حرية إنسانية فضلت الانغلاق على نفسها
والركون إلى قوتها في عالم جعلته ضيقاً كما وهي قصيرة المدى لا أبعاد
لها في ما وراء المنظور والآنسان بكيّف على شكله كل ما يلمسه .
ولكنّ هذا الطموح والمناقضات تُدخل الإنسان في عالم الحيرة
والباس .

لم يغيّر الإنسان وجه الكون فحسب ولكنه بدّل أيضاً طريقة
التفكير ووجه الثقافة توجيهاً مغايراً لما كانت عليه فيما سبق من الأزمنة
وأعطى المجتمع أغواراً جديدة .

تنور التقنية اليوم بما فيها من عقلية وضعيّة وحب المنطق في
تلل البراهين والابتعاد عما في البشر من عاطفة ترحم ومن حدس ؛
بينه وبين الحقيقة صلة عميقة ؛ تنور التقنية بالقيم الإنسانية ؛ حباً
كانت تدعى ؛ فتخرج الإنسان من أجواء تفكير أساسها الحياة وغايتها
معنى الحياة لترمي به في الفناء . ولكن تلك التقنية لا تسمح للإنسان
أن يتعرّف إلى نفسه فقط بل وأن يؤثر على غيره وأن يستدرك تطوّر
المجتمع بتحديد التسل وان يكون مجتمعاً يكثر فيه الاتصال بين الشعوب
مع تكاثر وسائل الإعلام فتشترك كلُّها وبسرعة البرق في أداء الآراء وفي

توجيه الرأي العالمي دون أن يكونَ في هذه الإشتراكية ما يُحسِّن موقفَ الشخص البشري. فالإنسانُ لا يجدُ في هذا كله ما يجعلُه يتعاطى مع أخيه الإنسان ولا الشعوبُ الغريبةَ مع الشعوبِ الشرقيةَ معاطاةً تُسهمُ في زيادةِ التِّيمِ الشخصيةِ وتوطيدها ونموها. فتُبدلُ شخصيةَ الفردِ إناءً تضخمُ الصناعةُ وتتعالى في عقله السُّؤالاتُ وعلاماتُ الإستهامِ : مَنْ أنا ولمَ وجودي على هذه الأرض . حيرةٌ وبأس . وبالتالي سُؤالاتٌ عديدةٌ عن فضائلِ ورثها وتقاليدِ وصلتِ اليه عن الحدودِ لا يرضي بها فيثورُ عليها ويرى فيها سلاسلَ تُقبِّدُه وترَبِّطُه إلى الماضي : والحريَّةُ تناديه إلى الأمام . تلك الحريَّةُ أساسُ عظمةِ الإنسانِ وشقائه . فيقفُ حائرًا أمامَ عالمٍ أراد أن يحرِّرَ الإنسانَ فاستعبَدَ : فن توتَّرَ في العيلةِ بين النسلِ والظروفِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ : إلى توتَّرَ بين الشعوبِ الفقيرةِ والشعوبِ التريَّةِ إلى توتُّرٍ بين المؤسساتِ الدوليةِ والأبانيةِ الوطنيةِ. هذا ما يهَمُّ العالمَ اليومَ . فأين نحنُ من تصميمه الأوَّلِ في تحريرِ الإنسانِ؟ والإنسانُ في كلِّ هذا ضحيةٌ يطلبُ أيُّها كان ، لا أن يعيشَ في عمله ويعمله فقط ولكن أن يَعْرِفَ من ماحلِ الحياةِ ويشتركَ في بنائها : في مظاهرها الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ والسياسيةِ والثقافيةِ . وفي هذا كله حيرةٌ وبأس . يشعرُ الإنسانُ في عالمِ اتَّسمَ بالقوَّةِ والضعفِ معاً بعدمِ توازنٍ خارجيٍّ - وهو يعلمُ أن مستقبلَ الثموى التي فجرها يتعلَّقُ به فتطحنهُ أو تُخدمهُ - وخاصةً بعدمِ توازنٍ داخليٍّ يتأخَّلُ في قلبه في مأساةِ التثوقِ إلى علٍ وإلى الانفلاتِ والارتباكِ بأمرٍ دنيويَّةٍ عديدةٍ ، في مأساةِ الميلِ إلى الشرِّ يشتركُ فيه والميلِ إلى الخيرِ ، يريدُه ولا يعملُه ، في مأساةِ العقلِ لا يتوصَّلُ في ثروتهِ الفكريةِ إلى تنسيقها التَّسبيقيِّ الدوِّيِّ وربطها بمبدأٍ يوحدُها ويُعطيها قيمةً عمليةً لتوجيهِ الحياةِ . ويعودُ في حيرةٍ وبأسٍ وينساءلُ مَنْ أنا ولمَ وجودي على الأرضِ ؟ وما معنى الحياةِ في مظاهرها العديدةِ : الشرِّ والموتِ ولمَ ينصُرُ عليها العالمُ في تطوُّره العلميِّ ؟ وما هنالك بعد الموتِ ؟ سُؤالاتٌ ليسَ بمقدوره أن يجعدها وإن تجاهلها فتظلُّ تلاحقُه كظلمتهِ .

ولكنَّ العالمَ لا يرضى بهذه السُّؤالاتِ فيتحدَّى مَنْ يعرضُها عليه . فاملنا عالمَ التحديِّ . إذ ما قيمةُ الايمانِ في عالمٍ لا يحتاجُ إليه لا في عمله ولا في اكتشافاته العلميةِ ولا في الاستدلالِ على طريقِ الحياةِ . والرَّجاءُ الذي يغذيه الإيمانُ بحياةٍ أخرى ليسَ سوى تحذيرِ العقلِ وتنويعِ الإرادةِ

كي يتعدَّ الإنسان عن استعمال قواه واختبار المخادقة بالحرية ووضعها في خدمة أخيه الإنسان. فلا بدَّ إذاً أن يعودَ اليومَ الإنسان إلى قرارة نفسه وبعيِّ مقدراته وبيتهمَّ بالعمل لا رائدَ له إلاَّ العودةُ المستمرةُ إلى الحقيقة. والحقيقةُ هي لا تبدلُ. ما يساعد الإنسان على تكوين هذه الأرض وجعلها الفردوس الذي ما بعده فردوس وكلُّ ما تبشئ فيهِ غريب عن الإنسان وغريبٌ عن دعوته الأساسية في التكاتف مع الغير لبناء يدوم. أعطوا الإنسان هذا العالم فيزول التوق الى عالم آخر .

وما دورُ الإيمان في الحياة الزوجية والعائلية ، يتخبط بين طياتها إنسانُ اليوم ويشعر بالمضايقات التي تفرضها عليه المادئ الإيمانية : وهي غريبةٌ عن الحياة الحاضرة بما فيها من صعوبات ومصائب . ولتلك العقيدة الإيمانية تاريخها وظروفها لا تنطبق على ما يكتشفه الإنسان من تحررٍ ومن تفتح لا يسمحان له بالخنوع أمام ما لا يُقرُّه الزمن الحاضر .

وما عدا ذلك ، فما هو دورُ الإيمان في إلقاء النور على مجرى التاريخ : أعاصير وأنتلابات وحروب طاحنة ومصائب لا تُحصى ليس لها أية صلة بحياة أبدية . فما من سبب للتعثر بعقائد كان من سوء حفظ العصور الغابرة أن أثرت عليها وليس لها مع علم اليوم من مبرر . والعلمُ يعطي الإنسان فرحاً ورجدةً عيش يحولان دون التفكير بعالم آخر هو وهمٌ تقلب في عقول الكثيرين ووصلَ اليأس من خلال التاريخ إذ باستطاعة علم اليوم أن يهبَّ بالإنسان إلى تجاوز حدوده وإلى الإنتاج في فترة قصيرة من عمره أكثر من عصور هيمنَ عليها الإيمان وكان فيها الرادع الأقوى لحرية لم يساعدوا على التفتت في أبعاد العظمة والجد بل أخذها وخنقها .

ولكنَّ العالم اليوم لا يتحدَّى الإيمان إلاَّ لأنه يتحدَّى الله بالذات ويعتبر أن مشكلةَ الله مشكلةٌ تافهة ليس على الإنسان أن يضع وقته في التفتيش عن حلِّ لها وهو الذي عليه أن يسهّر ليملاً دقائق أوقاته من عمل بناء في خدمة الغير . فلا غاية للإنسان إلاَّه ولا معبود له إلاَّه . وإذا ما أرادَ أن يسيرَ على طريق التقدُّم والعلم عليه أن يهجرَ الله وأن لا ينكرَ الآ بنسبه ؛ فضاحة الله بالنسبة للعلم ورفاهته بالنسبة للحياة لتخولان الإنسان أن يسير في الحياة نحو التطور الاقتصادي والاجتماعي يجد فيها ما يعرض عليه خسارة عصور عبرت . إذ ليس للإنسان ولما يعثره من مشاكل الساعة من منفعة يستقيها من عقيدة تأتيه من بطون

التاريخ لم يجرؤ أحدٌ على انتقادها ورفضها الرفض المطلق وبرئوس حياة البشرية بكاملها على انقاضها . فلن يرثر الله على الجيل العشرين ولن يرضى الإنسان عن حرته بدلاً وقد صار بالغاً بيني التاريخ ويخسر في الوقت عينه وعيه الديني : فكان في ذلك خلاصه . فلا يريد بعدئذ ان يتنسم الحياة معه الا الانسان اخوه : يتعاطى معه معاطاة الإنتاج والإثمار لا معاطاة الحب والصدقة والإلفة اذ هي أمور لا ضرورة لها في تطوير المدينة وقد ورثها من عقيدة كانت تدعي الوحي . فيصير إذك انسان اليوم محور التاريخ والانسان الشامل ويسير أيضاً في تفكيره فيعطي نفسه ما نتاه عن الله من صفات ويصبح الانسان الشامل الانسان الكامل .

=

إلى هنا وصل عالم اليوم في تطوره . ولكن من الخيف أن نلصق به السلبية فقط وفيه ما يوجه دائماً إلى السؤال الذي لا بد منه عن الله وعن الإنسان وكلاهما لا يفترقان في التفتيش عن الحقيقة . ولقد نجد عند بعض العلماء آراء تعارض ما سبق وقد مناه إذ يقول اثنتان : إنه لم يراقب في العلم ما يعترض الدين وإن هجر الله ليرك للعالم نفاحة وبأساً^{١١} . ويقول لويس ده برويل أيضاً : « إن أعمق تأثير يعترينا في حياتنا هو التأثير الصوفي الذي هو بدء العلم الحقيقي^{١٢} . ولذا فنظرة الى عالم اليوم كما عرضناه في ميزاته الثلاث تدلنا على أن التحقيق حل محل الحقيقة وأن النجاح أعاض به العالم من العتيدة . ولذا فالتنية هي الوسيلة الوحيدة ليكتف بها حياته وتاريخه . انما يختبر أن كل ذلك عابر يتبدل بتبدل الأيام والمناطق والأجواء ويبقى الانسان أمام الألم الذي يدك على إفلاس العقل والعلم : يبتيه امام الموت الذي تتحطم عليه غزارة الإنتاج الاقتصادي وتصير الطبيعة بالنسبة للإنسان في لامبالاة صامته تطحنه بعثوها ونفاحتها . فيشعر العالم إذك بمخين إلى الله أقوى وأعمق من ايمان بعض المؤمنين السطحي إذ بودت تطوير فكرة الله وتنقيتها مما يشوبها من خرافات ألتصوها بها عن وعي أو عن غير وعي . وعلى المؤمنين الحقيقيين : على الكنيسة أن تعطي العالم ما هو بحاجة إليه وأن تجاوب على ما يكت العالم أمامه حائراً .

PH. FRANK, *Einstein, sa vie et son temps*. (١)L. DE BROGLIE, *Continu et discontinu*, p. 98. (٢)

٢

ترى الكنيسة نفسها مسؤولة عن العالم وهي جزء منه . وضعها مؤسسها الإلهي في العالم : شعباً مختاراً ، ووسمها بطابع تجسده لتكون بين الأمم عاموداً نور وحديداً لمن أراد . فلا يحق لها أن تفلت من هذه المسؤولية وقد بُنيت على هذه الدعوة الأصلية : تمديد رسالة المسيح بين البشر . وإن كان التاريخ يُضفي عليها ثوباً بلبه التاريخ التالي مما علق بها من أمور عابرة ارضية : وإن كانت الأيام تتوالى عليها مجددةً فيها بالروح القدس ما شاخ من عادات وتقاليد ومراسم خارجية : فهو التاريخ وهي الأيام التي نطلب الى الكنيسة أن تُطبّق الإنجيل الذي تعينه والذي هو شرعتها الوحيدة على مشاكل واقعية وعلى عالم عليها أن تُخلّصه وتعود به دوماً إلى خالقه . هو التاريخ وهي الأيام التي تضع الكنيسة ، وهي من العالم وفي العالم وللعالم ، أمام واجبات عليها ان تعيها : إذ فيها نقطة انطلاق جديدة لرسالتها العملية . فالكنيسة اذاً تتلقن من التاريخ دروساً وتُعطيها الشروح الوافية : تتعلم من الايام والأحداث التي تحمل اليها ، بارادة علوية : شيئاً من حياة الإنسان ومن توقه المتأصل في القلب : وإن شطاً فيظلّ يرنو الى الغذاء الحقيقي ، فتقدم له من كنوز اثنت عليها : جدداً وعتقاً . هو التاريخ وهي الأيام يُعطيان الكنيسة وجهاً يُعرّف اليه العالم ، وجهاً هو منه وغريب عنه في الوقت عينه ، وجهاً عليه إمارات الزمن وإمارات الأبدية ، وجهاً يودّ العالم لو غاب عنه ولكنه يشعر أن له فيه حياة .

تجاه هذا العالم الطبيعي غير المسيحي عادت الكنيسة إلى يتابع رسالتها تنفجر في أعماق كيائها ، وقد سترتها بعض الحالات الزمنية : إجتماعية واقتصادية وسياسية وشعرت اليوم بالرسالة تندفق فيها نحو العالم المكلفة به من لدن الله ، تزيد ان لا تغيب عنه فتكامله حسب شعوره وصعوباته ومشاكله وطرق تفكيره دون أن تُعلمي عليه آراءها . تسمعه فتُجيب : تغبّطه على تطوره وتُعطيه معنى التطوير الحقيقي وتؤكد له أن الإنسان الذي يريد تحريره من عبودية المادة ومن خرافات علق يذنه فجعلته غريباً عن عقله وصدق توجيهه الفكري ، أن ذلك الإنسان الذي يريد العالم تحريره من المرض والموت هو محور إهتمامها وأن البشرية الحرة التي يتمخض عنها العالم هي هي تلك البشرية التي

تُريدها الكنيسة ملكوتاً للمسيح . فن الخارج الى الباطن ؛ ومن الخوف الذي كان يعترى الإنسان أمام الطبيعة وأحوالها إلى التمرس بقوة تفرضه حتى على الطبيعة والكون ليعود إلى مشاكل حياته الأصيلة التي تهزّه ؛ تسير الكنيسة بالإنسان في حياة تريدها شخصية تُعتق من عبودية الفساد وتصل إلى حرية مجد ابناء الله (رومية ٢١/٨) .

فينا ننظر العالم من الإنسان وحده تحريراً أخيه الإنسان والسبر به إلى الخلاص ، تنف الكنيسة وتعتبر باختبارها التاريخ . أن ذلك مستحيل وأن كمال الخلاص والتحرر عطية من الله ما تخلص الوحيد الذي بدوره يبني الإنسان سدس برج بابل . ولقد أعطي للعالم هدياً ونوراً وطريقاً يُحتدى به . يبدل العالم من الباطن في تطهير روحي مستمر إلى أن يصل به إلى ذروة التجديد يوماً بتلك القيامة . وذلك الانتفاخ من الموت إذ قهر الموت بالموت . فهو إذاً للعالم الألف والياء ، يحمل إليه بشارة محبة الله وارادته في تقديمه ليعود العالم عن غيه في سلام الدعوة الأولى التي دُعي إليها بالخلق . ويصبح قيثاره مجد الآب تلحن موجاتها ألسنة البشر . هو الألف والياء إذ ليس طبيعتنا الإنسانية وأخذها بكاملها ما عدا الخطيئة ؛ ولذلك فيقبل الإنسان إذاً بالكلمة المتجسد « باكورة الروح » (رومية ٢٣/٨) ويجدد في قلبه وارادته وعقله بانتظار « فداء جسده » (رومية ٢٣/٨) على حد قول بولس الرسول .

وإذ يشترك الإنسان بسر موت وقيامه المسيح الإله بالعماد المقدس يعير نسياً كالمسيح نفسه خيرة تُعطي الحيوية والقوة للعالم ويسير به إلى الأمام يخلصه بقداسته ويوجهه إلى مجد القيامة برجاء لا يُخزي . في هذه الشركة فخر الإنسان وكرامته بها تتكون في الإنسان قوة تغيير الموت إذ تُعطي الموت معنى خلاصياً بموت المسيح ونهوضه ؛ بها تتكون في الإنسان قوة تحملهُ إلى التردد بالروح وقد صار ابناً بالابن الوحيد : « أباً أيها الآب » (رومية ١٥/٨) .

•

بهذه الشركة بالذات تُصبح الكنيسة الخميرة في العالم يُجلبها العالم وهي جزء منه ولكنها تُجلبه وهي ضميره وروحه ؛ إذ ليست الكنيسة مجتمعاً كائسر المجتمعات ولكنها شعب الله تُعطي أمور الدنيا أبعادها الحقيقية . فالكنيسة وإن اهتمت في عهدها الغابرة باعطاء الحياة البشرية وأعمالها الصنفة

الأخلاقية دون ان تهتمّ لتسيما الاقتصادية والكونية . وإن اهتمت خاصة بتنظيم تلك الحياة دون أن تأبه للأبعاد التقنية الاقتصادية والاجتماعية ، وإن اهتمت بالنيات المرجحة للامور وبغاية تلك الامور دون أن تنتبه للصلة الدنيوية العلية ، وبذلك تكون قد املت نقطة هي بالنسبة لحياة انسان اليوم بمثابة نعمة ينشئها ليعيش : فانها . إذ تُعطي العالم المبادئ الأساسية لحياته . تقول الكلمة الفصل على صلة تطوير العالم المادّي وصلة الخلق بملكوت الله .

فالانسان في نظر الكنيسة خلّقَ على صورة الله ومثاله . فليس هو المخلّص وليس هو ما تتصوره اليوم الفلسفة الوجودية ؛ ذلك الكائن إلى الموت الذي تملأ حياته الحيرة واليأس فإنه يستمد كرامته من الله خالقه؛ إذ هو دعوة منه ليقيم معه مكالمة فيها قوتُه ونورُ حياته . فيؤخّله الله للمعرفة وللمحبة ويقيمُه سيداً على الكون بمجد به البارئ ويستعمله لحياته بحرية لا تسند فقط الى قوة العقل والى صلاحية الطبع ولكن الى الينبوع الذي تتأصل فيه وهو روحانية الله مبدأ وغاية كل شيء . انما امساء الانسان استعمال تلك الحرية فرفض علاقته بحالقه وادعى المطلق ، فأفقد صلة المحبة التي كانت تربطه بأصله وبأخيه الانسان وقد التوازن الداخلي وفضل الحياة في قوتها لا يهدأ له من بعده عقل ولا ضمير ولا ارادة فصارت حرية الانسان تجل إلى كل صوب ولم تعد تعلم اين الطريق ، عاجزة عن مجابهة الشر الذي يسيطر عليها ويقيدها باستعباد أليم .

إنما الانسان اذا ما تعرّف الى نفسه الروحية والدائمة بدوام خالقها رفض بتاتا الخضوع لخليقة رهيبة كورتها الأقدار . والظروف بل عاد دوماً إلى أعماقه ليتحس الحقيقة في صحبها ، وهي الحقيقة تلك التي توصله إلى الحقيقة المطلقة سيّدة العالم وموجّهته والمعطية الانسان حكمة التروي والدراية في تثبيت المنظر على أسس غير المنظور . بهذه الحكمة يضي الانسان على اكتشافاته انصادرة عن عقله وثقابة طبعه وجهاً انسانياً صحيحاً ويقطع عنها وجه الاستبداد الميت : إذ لولا تلك الحكمة لصار الانسان العوبة قوة أعطاه الانطلاق الأولى ولم يعد باستطاعته أن يوجهها ناسياً أنه على صورة الله كيون وأن فيه ما يرفض الخنوع دوماً . ولذا فإن الضمير في الانسان لينبئه على الخير والشر : فيأمر أبناء شعب الله وقد أثارهم الايمان بأن يصفوا لأوامره فيكونون في العالم ممن يعطونه الحلول الواقية لمشاكله المتعددة ، وخاصة الأخلاقية منها ويشعرون بأن

من واجبهم أن يتجاوزوا الظواهر إلى معناها والأنظمة الخارجية إلى مدلولها الحقيقي. وإذا ما سكت هذه الظواهر وهذه الأنظمة الخارجية أمام الموت وأقرت التنشئة بضعفها لشرح ما يعترى الإنسان من كآبة وحسرة أمام التوق إلى البقاء وضرورة النجاة : فإن الكنيسة تهب : وقد أثارها الروح بنهم الوحي : وتردد أن الخالق لم يخلق ليبيد ولكنه خلق ليجدد الإنسان بعد خطيئته ويجدد به الكون بخلص يعطيه أباه المسيح وبانتصار على الموت ناله المسيح بموته . ويسير الإنسان هكذا . وقد وضع فيه الباري شيئاً من أبلديته . إلى معانقة الإله في حضرة لا تزول . إنما على حربته الإنسان . وقد جرحتها الخطيئة . مسؤولة تحريره ، بقوة النعمة . مما يعلق به من غبار الطريق ومن أثنية وأثرة تمنعانه من التكاتف مع أخوته البشر إذ معهم كلهم : عليه أن يؤلف مجتمعاً تغيب عنه التفرقة ويسود فيه الخير الشامل .

فالتوتر بين الشعوب والأفراد لا يتأصل في الوضع السياسي والاقتصادي إنما ينبع من داخل الإنسان ومن نتائج الخطيئة التي تقسمه عن نفسه وعن الإنسان أخيه بعد أن تكون أبعده عن الله . وهو الله الذي يريد الخير الشامل للبشرية : اعطاها كنيةً تكون فيها لا كسائر المنظمات ولكن لتساعد المنظمات التي يكونها الإنسان على احترام كرامة الشخص البشري الذي : إن كانت عليه واجبات ، فله حقوق وإحتاق هذه الحقوق ليساند الحرية البشرية في تطويرها ، وهي الحرية التي تقوم بدورها الاثليل في تغيير العقليات والمجتمعات وفي استغلال المؤسسات ، أية كانت : استغلالاً لخير البشرية على هذه الأرض : الروحي والمادي في كل أحواله الاقتصادية والاجتماعية . وفي هذا كله احترام الإنسان لأخيه الإنسان : فلا قتل ولا حرب ولا تعذيب ولا استعباد ولا بغاء ولا ظروف عمل لا يعود بعدها للحرية من نمو وازدهار . وعلاوة على ذلك فالكنيسة تذهب إلى حمل الإنسان على خدمة الأعداء ومحبتهم وعلى طلب الغفران فإن الحقيقة الخلاصية تبشر بالماوأة وتثور على كل تفرقة عنصرية كانت أو دينية ولا تنز لأحد باستعباد آخر : شعباً كان أو فرداً : الاستعباد الاجتماعي أو السياسي : وهي إذ تطلب أيضاً وايضاً احترام الكرامة البشرية تدافع عن حقوق الإنسان الأساسية وتطلب العدالة الاجتماعية والتخلص من ضغط الثروات الطائلة وتسئ الشرائع لا الفردية فحسب ولكن الشرائع الجماعية التي على الفرد كما وعلى الجماعات أن يحترموها في حياتهم إذا ما أرادوا السلم والسلام .

هذا كله تحمله الكنيسة الى البشرية وتستقيه من نتائج نجد الكلمة ليعلم الإنسان التفتح على أنجيله الإنسان وليخلصه من عبودية الخطيئة. وهذا فيبدو الإنسان مسؤولاً عن تنعيم ارادة الله في مجرى التاريخ حيث يعمل لا كمنافس لله ولكن كنعم ، بالروح العلوية : لما اراده الله منذ البدء الخليفة أحبها فخلقها . فتصير الاكتشافات والاختراعات رمزاً للعظمة الإخية ، إذ القيم الارضية والايان لا يختلفان وكلاهما يتأصلان في الإله الواحد والوحيد ، إذ العلم والايان لا يتنافران ، إنما بينهما صلة وثيقة : فبينما العلم يسير على طريق الحياة ، يردد الايمان أن قيمة الانسان لتعود كل تطوير تقني وأن العلم إن لم يخدم الشخص البشري وباعده على التملك المتزايد على نفسه بات ظلماً وخيبة . اي ان أعمال الانسان ان لم تطهر وتر الى كمالها بصلب المسيح وقيامته ظلت معادية لخير الإنسان الحقيقي . فالكلمة المتجسد أراد البشر أحراراً : يهدون بأنانيتهم وبمجموعون القوي الأرضية كلها في خدمة الحياة الإنسانية ويشبون الى المستقبل ، إلى ذلك الوقت حيث البشرية تصير تقدمية ترضي الله . وفي هذا التطوير تلعب الكنيسة الدور الأكبر ، لتعمل ، بصورة لا ندركنها ، على تحقيق الملكوت الذي أراده المسيح فتؤلف ، في حياة الجنس البشري ، عائلة أبناء الله تنمو باستمرار . وإذ هي على هذه الحال فانها ترافق البشرية وتتسم وإياها مصيرها الأرضي في هذا العالم ، تعمل فيها كالحميرة وكالروح وقد دعيت البشرية بكاملها لتجدد بالمسيح وتصير عائلة الله .

إنما تحابك المدينتين الأرضية والساوية في هذا العالم ، لا يدركه إلا الايمان وسيظل السر في تاريخ البشرية إلى ان تصل يوماً إلى مجد أبناء الله بعد أن تكون الخطيئة قد هزت دعائمها على هذه الأرض . فلن تكون رسالة الكنيسة سياسية ولا اقتصادية ولا اجتماعية . غايتها دينية . ومن هذه الغاية تندفق الأنوار وتفجر القوي التي تدعم جماعة البشر في الاذعان للشرعة الالهية ، فيها يجد الانسان انسانيته ومنها يسمع الجواب لكل ما يعتره من مشاكل . فالانجيل لا يعاكس اندفاع العصر وتطوره ولكنه يكبره في طريق الخير ، فتعرف الكنيسة الى كل ما هو حسن وجميل في عمل البشرية اليوم ، وتسانده طالما يرمي إلى تكوين وحدة البشر على صعيد الحياة الاقتصادية والسياسة قمرى في تلك الهمة ما يثنى ورسالتها الأصلية . فتنشئ المؤسسات الخيرية وتبارك ما يصنع الآخرون ويجهد في ان تكون همزة وصل بين الشعوب والأمم رسالتها تعملها ويحورها

يحملها إلى أن لا ترتبط بمدينة ما أو بمذهب سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي ما ، فتصيرُ بشموها هذا ، إذا ما أعطت حرية العمل ، منارةً يستيرُ بهديها أبناء البشرية المثالة .

وكلمة الكنيسة إذاك لأبنائها بالأ يهجرُوا الأعمال الدنيوية والتكاتف مع الغير : فالإيمان يحشهم إلى ذلك إذ يضعون في خدمة الجنس البشري كفاءاتهم ومسؤوليتهم ويحفرُونَ في المدينة الأرضية شريعة الله ويشهدون للمسيح في جماعة البشر . فلا تفرقة بين الإيمان والأعمال اليومية ، لا تفرقة بين المهنة والخدمة الاجتماعية والحياة الدينية ، وعلى غرار المسيح العامل : على أبناء الكنيسة أن يُقيموا بالقيم الدينية مجهودهم البشري ، عائلياً كان أم مهنياً أم علمياً أم تقيماً ويوجهود إلى غايته السامية وبالتالي إلى الخلاص . إذاك تُصبح الكنيسة رمز خلاص العالم بمؤسستها وخالقها المسيح الإله : تصبح السر الأكبر ، فيه تلتقي القيمُ الأرضية بالقيمه التي لا بدء لها ولا نهاية والتي تُعطيها حقيقتها وصدقَ فعاليتها .

٣

لا تكتفي الكنيسة في مساندة العالم في تطويره الى خالقه بأن تُسدي له المبادئ العامة ، وهي نتيجة رسالتها ونتيجة تجسد ابن الله ونهوضه من الميت : إنما تفتش معه عن تطبيقها على بعض مشاكله الحساسة والملحة : الزواج والعائلة ، الثقافة وتطويرها ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، حياة الجماعة السياسية وتوطيد السلام . وفي كل هذه الحالات تعتبر الكنيسة أن أساس تفكيرها هو الشخصُ البشري واحترام كرامته وحرية .

فلا تنظر الكنيسة بادئ ذي بدء في الزواج الأ إلى الحب الصحيح بين الزوجين ، والحب خصب بطبعته ، ينبثق من الحب الإلهي : توجهه وتغنيه قوة المسيح الخلاصية وتطهره باستمرار خادمة الكنيسة من كل ما يعتره في تطويره من ضعف . إذاك تتوطد في الوالدين روح الدعوة السامية التي دعاهم الله اليها ومجدون الخالق مع ابنائهما ويعطيان للعالم مثال الكرامة والأمانة والسلام . وتساعد الكنيسة أيضاً على التفكير اذ تعلن حسب تعليم بولس الرسول أن الزواج إن هو إلا صورة وشركة العهد الذي يجمع المسيح بجسده السري .

وعلى هذين الأساسين تبنى الكنيسة الزواج المسيحي ، وما تبتنى فهو

نتيجة". ففسير الشخص البشري وقد أناره الإيمان يوجهه الى احترام الشرائع الالهية وإلى التضحية في سبيل العهد الزوجي الذي لا تنقسم عراه : وإلى مشاركة الخالق في خلقه فيحترم الحياة ويتطلب انجاب البنين في جو صاف من الحب وتحمل مسؤوليات تربيتهم وبستفيد من العلوم كلها : الطيبة والاجتماعية والنفسانية ، كمي يصل الزوجان إلى التخلص من القلق الذي فيه يعيشان بالنسبة لتحديد النسل وللظروف الاقتصادية والانسانية . بهذا تظل الحياة بعصلتها بمصير الإنسان الأبدي توجه الزوجين إلى قيم الزواج والعائلة ويشهد الوالدان محبة أوحى بها المسيح للعالم بموته وقيامته .

=

إنما الثقافة فينا تتجه اليوم في طريق جديدة : وترتدي روحاً جديدة : وتدخل البشرية في طور جديد من تاريخها . وتُعطي الحياة تفسيراً جديداً وتزايد فيها النظرة إلى العلوم والتربية : وتخلق توتراً بين ما هي عليه وبين ما ورثه الإنسان من تقاليد تتأصل في القيم الداخلية وتتأسس على ركائز النفسانية ، العديدة الشعب ، حسب اختلاف العناصر والبلدان ، يُعطي الإيمان التوجيه الصادق : أن في كل هذا لا أهمية إلا للشخص البشري ، والعالم الذي تبنيه الثقافة اليوم ، يجب ان يكون عالماً إنسانياً : تزايد فيه التقييم الانسانية : إذ لولاها لتوصل التطوير إلى خفق كل حرية وخلق الذعر والوله في قلوب الناس ، وجعل العالم عالم الظلم والخوف . فلن يسمح للثقافة اذاً إلا بأن تكون في خدمة الإنسان وفي خدمة دعوته الكاملة : فيُعطي دوماً نوراً من الوحي الالهي ويقود إلى التعرف إلى الكلمة - الابن الذي كان في العالم قبل أن يتجسد ، نوراً للعقل وهدياً للضمير . فلا انفلاق اذاً على حياة الإنسان الارضية : وفي هذا الانفلاق ما يقتل الإنسان يوماً إذ يقتل فيه وعيه الديني واتباهه للصلة التي تربطه بخالقه . إنما الكنيسة لا تنكر على الثقافة في تطويرها ما أعطته من توجيهات ايجابية كحب العلم والأمانة للحقيقة والعمل الجماعي وغيرها : ولكن في أيام يسر فيها العالم نحو بناء وحدة شاملة بالاضطلاع بروح الاستقلال والمسؤولية : تعيد عليه الكرة بأن محور كل عمل هو الانسان : وهي هي التي تعمل لتخلص البشرية من أزمات قد تؤدي بحياتها : أزمات الاستعداد للسياسة أو أزمات الإذعان المطلق لتطوير مادي وعلمي ، اقتصادي واجتماعي ، تحمله إلينا ثقافة اليوم . فلا غرو

اذا ما أُلحَّت الكنيسة على حق كل إنسان بالثقافة وضرورة شيوعها بتطهيرها المستمر من كل عائق يمنع الترد والجماعة البشرية من الإفادة منها .

=

يظل موقف الكنيسة هو لا يتبدل على صعيد الحياة الاقتصادية والاجتماعية . فلا قيمة للثروات وان كثرت ان لم تخدم الانسان في دعوته الكاملة إذ هو محور وغاية الاقتصاد والاجتماع .

يخاف المفكر اليوم من طغيان الإقتصاد والتضاء على شخصية الإنسان . يخاف من عدم توازن بين الشعوب الذي يؤدي إلى الاستعباد . فتقول الكنيسة أن ذلك التطوير الاقتصادي يجب أن يظل تحت إشراف الإنسان بما فيه من انسانية وخلقة ، وروح خدمة الخير الشامل ، ومساعدة أخيه الإنسان للوصول ، بواسطة المادة ، إلى ما يصبر إليه بحريته . ولذا فنصير أعمال الإنسان ملأى بالتوجيه الانساني والالهي معاً وقد أعطى المسيح الشغل قيمة الخلاصية يوم كان يعمل في الناصرة . فلا مندوحة إذًا في تخمة الغنى من ان ينظر الانسان الى اخيه ويشركه بعمله ويعطيه الأجرة العدل ويسمح له بالفتح الاجتماعي والثقافي والروحي اذ ليس الانسان العامل آلة انتاج وإعمار ، انما له كرامة تنبثق من كرامة الله بالذات . فأموال الأرض للكل ويجب أن تساعد الفقير والعوز لتزيلها أو لتخفف من وطأتها . إذاك تهدف الأموال ويهدف العمل الى ملكوت الله ويساندان الانسان في سيره الخير دون أن يكونا بقلتها او بكثرتها عقبة تحول دون الوصول الى من قال : طوبى للفقراء بالروح . وعلاوة على ذلك فتلح الكنيسة قائلة إن للملكية الخاصة معنى إذ تتصل بالإنسان ، خا معه صلة الحرية التي تعبر عن نفسها بامتداد الروح الى المادة والسيطرة عليها .

=

واذ تزايد اليوم التغييرات العميقة في مؤسسات الشعوب وأنظمتها بتزايد التبدلات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية فإن الكنيسة تعود وتكلم على حقوق وواجبات المواطن في خدمة الخير الشامل . وإذا ما وضحت اليوم ، أكثر مما مضى من الزمن ، كرامة الإنسان وحرية الاجتماع فتطلب الكنيسة حق الكلام للكل وحرية الفكر والضمير والدين وبالتالي تسهر على حقوق الاقليات وفي ذلك يقوم التطوير الصحيح والنمو بروح

العدل الصادق . وإذا ما زادت سلطة المؤسسات والدول ، قهَبَ الكنيسة للدفاع عن حقوق الأفراد . فلا تفرقة إذاً بين أعضاء الوطن الواحد الذين يتوجب عليهم حمل المسؤولية في لعب الدور الذي يعود لهم في تطوير الوطن ومفهوم السلطة . وإذا ما شطت الدول في تأكيد استقلالها المطلق فتعود الكنيسة لتفتيمها أنها ودول الأرض في استقلال نسي وكلاهما يعملان في خدمة الشخص الفردية والاجتماعية وبالتالي لخدمة ملكوت الله .



أما وقد صارت البشرية واعيةً لرحمتها وتكاثر الوسائل لتسهيل تكاتف وتعاضد أعضائها في الخدمة : تبه الكنيسة أبناء العالم : وقد هدمت الحروب حياةً غالية ودمرت معالم مدنيات عظيمة : الى ضرورة احلال السلام والسهر عليه ، إذ السلام يتطور وينمو ويذبل إذا ما سهر الجميع على احترام خير الشخص البشري وكرامته وتوزيع الثروات المادية والروحية . فالسلام ينبت من قلب الإنسان ، وفي قلب الانسان تتأصل الحرب ، في انانيته . ولذا فالكنيسة تطهر ذلك القلب وترتل الحان المحبة التي لها وحدها القوة ان تقرب الانسان من اخيه الانسان وان تنتصر على همجية الحروب وان تفرض احترام الأقليات وان تضمن السلام العالمي . وإذا ما جمعت الشعوب الأسلحة وصرفت الثروات الطائلة في سبيل تكتيزها فلا رادع عن استعمالها سوى انتكاتف لوضعها في خدمة الإنسان والعودة الى جمعية الامم لتفادي التفرقة وتكون نظاماً اقتصادياً عالياً يثنيده منه الجميع ويخدم التفتح الإنساني ويعتق البشرية من شبح النقر أو من تخمة الثروة لتنتفع من الروحيات . انما على كل شعب أن يهيم في نطاق ثرواته البشرية والمادية وأن يسعى لتحسين احواله وآلآ يعيش فقط في رجاء ما سيأتيه من حسنات الغير . وفي هذا كله تنبه الكنيسة الأفراد والجماعات الى أن الإنسان ، وإن أحتاج الى الخبز ، فإنه لا يقتات فقط من خبز الأرض .



الخاتمة :

في جوهر الكنيسة مكاملة العالم . فلا يثن لها أن تظلّ في برج عاجي تحفظ الحقيفة لها ولأبنائها ؛ ولا أن تُكثّر وسائل الخلاص لها ولأبنائها . تقودها أمانة من صلب رسالتها ، وهي في أن تكون مع البشر في حياتهم لتقودهم إلى الاتحاد بالله بالمسيح يسوع . تشعر بتوق لا يترك لها من سبيل للراحة ؛ ترق إلى الرسالة بالتبشير بكلام الله وبإخدمة وبالحياة الطقسية حول مائدة الخلاص . تود أن تتحرّر مما تعثر به في سيرها لتحمل ، في عناق العالم ، مثل الحرية لمن اقتداهم الكلمة المتجسد ليُعتقوا من ريقه العبودية ويتكاثروا في محبة صادقة ويعطوا العالم وجه الانسان وإمارات الله . فيكرسونه خليفة لا تتلاعب بها أيدي الشر ، خليفة تنبع منها حياة لخدمة الانسان : « أتيت لتكون لهم الحياة وتكون لهم أوفر » (يو ١٠/١٠) .